على طريق الأصالة

(١٣)

تحفظات على مفاهيم النفس
والأخلاق والاجتماع الوافدة

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

تحفظات على مفاهيم النفس

والأخلاق والاجتماع الوافدة

مدخل إلى البحث :

تقوم مفاهيم العلوم الإنسانية فى العصر الحديث على أساس دراسة الإنسان واستمداد من تكوينه ووجوده وحركته فى الحياة ، فهى تعتمد أساساً على مفهوم الإنسان نفسه فما هو الإنسان فى مفهوم العلوم الحديثة وهل ماهيته صحيحة أم قاصرة ومنشطرة .

لقد نشأت العلوم الإنسانية فى الغرب بعد أن تشكلت فى الفكر الغربى قاعدة الفكر المادى القائم على نظرية تقول بأن الإنسان حيوان تحكمه المعدة والشهوة وأنه خاطىء وأن عليه أن يسرع إلى اقتناص اللذات والشهوات قبل أن يموت وأنه ليس بعد هذه الحياة حياة أخرى وأنه ليس مسئول مسئولية فردية فإن المسئولية هى مسئولية المجتمع وأن الدين خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها وأن الحياة مادة وأن الحياة تتطور إلى ما لا نهاية وكل شيء فيها نسبى وأن الإنسان وما يتصل به من عواطف ومشاعر وأدب يمكن أن يحاكم محاكمة المادة والحيوان .

ومن هذه القاعدة التى أقامتها الفلسفة المادية تشكلت كل العلوم الإنسانية ومن ثم فإنها فى مجموعها تختلف على مفهوم الإسلام جملة وتفصيلا وأن تطبيق مفهوم العلوم الإنسانية الغربى من شأنه أن يسلم المسلمين إلى مادية وثنية إباحية خطيرة

ولذلك فقد ارتفعت أصوات المصلحين المسلمين من اليوم الأول لظهور هذه المفاهيم بكشف أخطائها ودحض زيفها والتعريف بمفهوم الإسلام الجامع المانع فى مجـــال الاجتماع والنفس والأخلاق وهى مفاهيم تقوم على النظرة الصحيحة وطبيعة الإنسان نفسه الذى تشكل أساساً من قبضة الطين ونفخة الروح والذى يجمع بين المادة والروح وبين العقل والقلب وبين أشواق الروح ومطامح المـادة والذى يصاب بالتمزق إذا فصل بين جانبيه المكاملين سواء كان ذلك فى الخضوع للفكر الفلسفى المـادى الغربى الذى لا يعترف إلا بجانبه المـادى أو بالفـكر الشرقى الغنوصى الذى تعتنقه فلسفات الهندوكية والبوذية وغيرها والذى لا يعترف إلا بالجانب الروحى للإنسان .

ولسنا فى حاجة إلى عرض مفصل للتطورات التى مر بها الفكر الغربى منذ انفصاله عن مفهوم المسيحية الغربية وهى ليست المسيحية المنزلة ، ثم تحوله إلى الفلسفة المادية فالفلسفة المثالية وانتهاءه باعتناق النظرية المـادية .

وقد ولدت مفاهيم العلوم الإنسانية التى تمثلها فلسفات النفس

والأخلاق والاجتماع ومنها الفرويدية والوجودية وغيرها فى هذا الإطار الذى قام أساساً على مفهوم منهار هو مفهوم نظرية فرويد فى الظن بأن الإنسان والحيوانات العليا من أصل واحد (وهى نظرية أثبتت الأبحاث والحفريات فى العقدين الماضيين فسادها أصلا بعد أن تكشف عن أن دارون جعلها فرضية أساساً ولم يجعلها حقيقة علمية ، وبعد أن قال أن هناك (فجوة) حين عجز عن تقديم مفهوم كامل .

ومع الأسف فإن هذه النظريات التى هى فى حد ذاتها فرضيات لم تصل بها إلى درجة الحقيقة العلمية ، قد قبلت فى بلادنا وقرر تدريسها فى جامعاتنا ومدارسنا مع تعارضها الكامل مع الفطرة وحقائق العلم وحقائق الإسلام نفسه ، حتى فى الوقت الذى بدأ علماء يراجعون هذه الفرضيات ويكشفون قصورها ويعلنون أنها اعتمدت على معطيات لها طابع العلم فى القرون الماضية ، ثم أصاب هذه المعطيات التغيير الذى أودى بالنظريات التى اعتمدت على أساسها ، وما من علم (إذا قبل تجاوزاً) من هذه العلوم إلا كشف الغرب عن اضطرابه وتصدعه وقد أعلنت هذه الحقائق فى مؤتمرات علمية ذات قيمة ومهابة فى عواصم عديدة من الأقطار الغربية فى نفس الوقت الذى رفضها المسلمون أساساً .

فعلم النفس ونظرية فرويد بالذات واجهت كثيراً من أسباب النقد الذى زلزل وجودها الذى لم يكن فى حقيقته علمياً ولكن كان لأن قرى

معينة كانت وراء فرضها وإغراء الناس بها ، ونظرية الاجتماع الغربي الذي رسمها دوركايم ومدرسة العلوم الاجتماعية واجهت منذ اللحظة الأولى ردود فعل تكشف أهواء الدعاة إليها وتردها إلى مطامع الصهيونية في تدمير الجنس البشري وتشير إلى نصوص واردة في التلمود وفي بروتوكولات صهيون في هذا الشأن ، ونظرية الأخلاق الغربية أيضاً ونظرية التطور ونظرية النسبية والتفسير المادي للتاريخ كل ذلك كشف علماء مثقفون في الغرب عن فساده ، وأنه ليس صالحا ليكون نظرية عامة ، وأنه ربما كأنه رد فعل إقليمي ضيق لمجتمع معين في ظرف معين ، ولكنه ليس حقيقة علمية أو نظرية علمية عامة تصلح للبشر جميعاً أو الأمم جميعاً .

وإذا كان الغرب قد وضع أيدلوجيات أو نظريات في هذا الشأن فذلك أمر في دين لم يكن يحمل معه منهج حياة أو نظام مجتمع بعد أن انفصلت المسيحية عن منطلقها الحقيقي بوصفها آخر رسالات السماء لبني إسرائيل وأن نظامها في التوراة ، إذا كان الغرب قد فعل ذلك وقاوم مفهوم الدين والأخلاق على النحو الذي اصطدم به رجال العلم في الغرب نتيجة تعنت الكنيسة فإن ذلك أمر يخص الغرب نفسه وليس له في أفق الفكر الإسلامي مكان ما للاختلاف الواسع بين الإسلام الذي جاء دينا عالميا والذي قدم للمسلمين منهجاً جامعاً ، سواء في أمور العيش أم في الغيبيات (ما وراء المادة) أو في المعرفة أم في العلم التجريبي ، ولذلك فقد كان من حقنا منذ وقت بعيد أن تكون لنا

موقفة واضحة حاسمة مع العلوم الإنسانية الغربية .

إن أخطر ما يواجهنا ونحن ندرس العلوم الإنسانية الغربية هو إخضاع هذه المناهيم (ولا نقول العلوم - النفس والأخلاق والإجتماع) للمناهج التجريبية التى تخضع لنا العلوم المادية ذلك أن المناهج المادية تعجز عن الحصول على نتائج صحيحة بالنسبة لمشاعر الإنسان وعواطفه وأخلاقه وتصرفاته .

ذلك لأن طبيعة العلوم الإنسانية مختلفة متباينة ومن ثم لزم أن يعالج كل منها مفهوما خاصا ، وإذا كانت هناك قوانين لقياس الطبيعيات والرياضيات فان هذه القوانين تعجز عن قياس العواطف والمشاعر والأحاسيس ويرجع ذلك إلى أن حرية الإرادة البشرية تدخل فى الظواهر الإنسانية وتغير مجراها تغييراً يجعل من العسير اخضاعها لقانون على ثابت وأنه إذا كانت القوانين الطبيعية عامة صادقة فى كل زمان ومكان - كما يقول العلماء — فإن مقررات العلوم الإنسانية ترتبط بظروف شخصية وتاريخية متغيرة كذلك فإن الباحث فى مجالات العلوم الإنسانية لا يستطيع أن يتجرد من أهوائه وميوله ومصالحه وهو ينظر إلى موضوعه الذى يتصل بالإنسان من خلال عقيدته وثقافته وتقاليد وطنه ونحو ذلك من عوامل تؤثر على نزاهته وتجعله ذاتياً أو متأثراً بالعوامل الذاتية على عكس الحال فى العلوم الطبيعية .

الإجتماع :

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فانا نرى أن مفهوم مدرسة العلوم الاجتماعية تنكر حقيقة ثابتة فى الإسلام هى إصالة قيام الأسرة منذ العهود البشرية الأولى والقصد هو تضحية الأسرة من أجل قيام شيوعية المجتمع وفى المفهوم الأصيل أن الأسرة تكونت فى بداية البشرية ولم يتخل جيل من الأجيال عنها والقرآن الكريم يقرر أن الأسرة نظام بشرى أصيل :

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) .

كذلك لا يعترف الإسلام بأى نظرية عن تطور للعائلة على أساس أن المرأة كانت مشاعة فى عهد البشرية الأولى أو أن العائلة تكونت بمرور الزمن بفعل عامل اقتصادى وذلك ما تحاول بعض دراسات الأنثربولوجيا دسه وهو غير صحيح علمياً أو تاريخياً .

وهكذا تجرى النظرية الإجتماعية المادية فى محاولة التشكيك فى أصل هذا النظام توطئة للدعوة إلى القضاء عليه ، والنظرة الصحيحة ترى أنه ربما غلبت هذه الدعوة مرة أو مرات على مدى التاريخ الطويل

بحكم الاستثناء الذى يحدث لاستعلاء الباطل والشر ولكن الواقع أن هذه المحاولات كانت تتحطم بسرعة وتفشل فشلا ذريعاً لأنها تعارض الفطرة وتيار التاريخ .

وبعبارة واحدة أنه قد عجزت كل المحاولات التى مرت على مدى التاريخ للقضاء على الأسرة وسيظل نظام الأسرة ثابتاً مكيناً ، ذلك لأن الأصول الإنسانية التى يقوم عليها ليست من صنع الأفراد ولا هى خاضعة لما يريد الفلاسفة أو صناع الايدلوجيات ، كذلك يكشف الإسلام زيف المفهوم الذى طرحه ما يسمى علم الانثروبولوجيا والقائل بأن البشرية بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد، أو القول بأن الدين نظام اجتماعى قابل للتطوير مثل الجماعة نفسها فى تاريخها من تشريع وأخلاق ، وذلك لأن الحقيقة العلمية هى أن البشرية عرفت التوحيد بأول إنسان وهو آدم عليه السلام ومع أول نبى وهو نوح عليه السلام وأنها مازالت تتداول التوحيد والوثنية عصراً بعد عصر ولم يكن هناك عصر واحد خال من دعوة التوحيد .

كذلك فان الإسلام ليس دينا وضعياً يخضع لما تخضع له الإيدلوجيات من تحوير وتعديل وتطوير ، إنما هو دين موحى به من السماء وقد أحكمت آياته على نحو يجعله صالحاً لكل الازمان والعصور والبيئات وأنه جاء على نحو من المرونة واتساع الأطر وملامسة الفطرة البشرية ، ولذلك فهو لا يخضع لما تخضع له الأديان الوضعية .

الأخلاق:

تقول النظرية الغربية فى الأخلاق ، إن مبادىء الأخلاق ما هى إلا ظواهر إجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل فى بنائها أو فضل فى الإيمان بها .

وتقول : إن الأخلاق تختلف عن الدين وأنه لا صلة بين الدين والأخلاق وأن الأخلاق هى استجابة النفس إلى الوسط فإذا ما تغير الوسط تغيرت الأخلاق وأن هذا الوسط يتسع ويضيق باختلاف الزمان والمكان .

كذلك تقول النظرية ان الأمم ليست فى حاجة إلى الأديان ولكنها فى حاجة إلى الأخلاق وأنه يمكن الإستغناء عن الأديان اكتفاء بالضمير الإنسانى .

أما النظرية الماركسية فترى ان الأخلاق مثل السياسة ، والقوانين تخضع للأحوال الاقتصادية والظروف المعيشية لكل مجتمع ، ويجمل قول الفكر الغربى بشقيه :

إن الأخلاق نتاج البيئة وأنها تختلف باختلاف الأمم والعصور وتغيرات المجتمعات ولاريب أن هذه النظرية مرفوضة تماماً فى ضوء الفكر الإسلامى فضلا عن سذاجتها وقصررها وانتشارها فى فهم النفس البشرية ومضادة لحقائق التاريخ وسير الأبطال وحيوات الامم وأنها

ضد الفطرة ولا يقرها العلم ومفهوم الإسلام ، ان طبيعة الإنسان ثابتة لا تختلف وان الاخلاق جزء من الإسلام فالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق ، وان هناك فارقاً عميقاً بين الأخلاق الثابتة المتصلة بالدين نفسه ، وبين التقاليد التي تتصل بالمجتمع وتتغير بالأسباب الطارئة فالإسلام يفرق بين الأخلاق والتقاليد ، والدين والأخلاق في الإسلام لا ينفصلان ، والقرآن الكريم هو أصل الأخلاق الإسلامية :

والإسلام يربط بين القول والفعل والصحة والسلوك والأخلاق في الإسلام قاسم مشترك على مختلف أوجه الحياة

سياسية واجتماعية وقانونيةوتربوية ، وغاية الأخلاق في الإسلام بناء مفهوم (التقوى) الذي يجعل أداء العمل الطيب واجباً حتماً ويجعل تجنب العمل الضار واجباً حتماً ، ويجعل الخوف من الله أقوى من الخوف من القانون والعقوبات الوضعيةويقرر الإسلام ان القيم الأساسية ثابتة لا تتغير لأنها صالحة لكل زمان ومكان وان الأخلاق والعقيدة والشريعة ليست من صنع الإنسان ولذلك فهي قائمة على الزمان مابقي الزمان وعلى اختلاف البيئات والعصور وان الحق سيظل هو الحق لا يتغير .

ولذا فان ابرز قواعد الإسلام هو (ثبات القيم) وبالتالي ثبات الأخلاق وان (الالتزام الخلقي) هو قانون اساسي يمثل المحور الذي

تدور حوله القيم الأخلاقية فإذا زالت فكرة الإلزام قضى على جوهر الهدف الأخلاقى ذلك أنه إذا انعدم الإلتزام انعدمت المسئولية وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه .

وفى الغرب أخلاق بلا التزام وفى الإسلام أخلاق ملتزمة وثبات القيم فى العقيدة والشريعة يجعل (ثبات الأخلاق) قيمة أساسية قائمة على أساس القاعدة التى تتمثل فى أن طبيعة الإنسان ثابتة لا تتخلف وقد جاء الإسلام ليقدم لها الضوء الكاشف والهدى الصحيح الذى يحفظها من القلق والتمزق والتشاوم والحيرة واليأس ، وهو بغير هذا العطاء لا يستطيع أن يواجه الحياة ولقد ذهب العلم الحديث فى منجزاته إلى آفاق بعيدة من المادة والرفاهية ولكنه ظل عاجزاً من أن يعطى الإنسان لمحة سكينة أو نفحة طمأنينة ، ان الطبيعة الإنسانية لا يمكن أن تجد طريقها الحق إلى الأمن والأمان إلا فى الاتصال بالله وفى التماس منهجه .

ومن هنا قرر الإسلام أن هناك قيمة ثابتـــة ليست من صنع الإنسان هى الأخلاق ، وقيما متغيرة لأنها مرتبطة بالناس والمجتمعات فى العادات والتقاليد ومن الخطأ الخلط بين الثوابت والمتغيرات من القيم الأصلية الربانية ومن القيم التى صنعها المجتمع ، ثم تصل بعد ذلك إلى زيادة المطاف وإلى أخطر ما يطرحه المذهب الغربى الوافد فى مجال النفس .

النفس :

وهو مذهب (فرويد) الذى لم يكن إلا خيطا واحداً من عدة خيوط طرحها علماء آخرون وربما كانوا أكثر عمقا وفهما للنفس الإنسانية من فرويد ، ولكن مذهب فرويد لأنه صنع من مفاهيم التلمود وفى سبيل تحقيق هدف الصهيونية فى تدمير البشرية ، أعطى أكثر مما يستحق وركز عليه تركيزاً شديداً وأذيع وفرض فى الجامعات فى مختلف أنحاء البلاد الإسلامية وسيطر على مناهج الأدب والقصة وعلى دراسات التربية والأخلاق وبذلك حمل إلينا أخطر مفاهيم وأبعدها عن الفطرة وكانت له ولا تزال آثاره البعيدة المدى على التحلل والإنحراف والفساد الذى تموج به المجتمعات ، والحقيقة أن نظرية فرويد فى التحليل النفسى لم تكن إلا مجموعة من الفروض التى استقاها من تجربته مع المرضى والشواذ المصابين وليس من الأصحاء والأسوياء ، وهى وجهة نظر مطروحة للنظر وقابلة للصواب والخطأ وهى فرضية تشكلت من الأحاسيس الكامنة فى نفس يهودى يعيش فى المجتمع النمسا المتعصب للمسيحية ضد اليهود ومن خلال مخططات اتفق عليها مع هرتزل وغيره من أجل التوسيد لسيطرة الصهيونية على العالم على النحو الذى أوردته بروتوكولات صهيون .

وفى الحقيقة إن الأهواء غلبت منها على العلم فلم تثبت أمام التجربة ، وقال كثير من الباحثين المتعمقين : إن فرويد أقرب إلى

المتنبئين منه إلى العلماء وأنه يرمى نظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العملى أو السند الواقعى، وأنها تقوم فى أغلبها على الإفتراض ثم تصديق ما يفترضه فيبنى عليه كأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل وقد أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل أن الدافع الجنسى — الذى اعتبره فرويد أساس الرغبات الإنسانية - إنما يأتى فى مرتبة ادنى من كثير من الدوافع الأخرى، كالهواء والشراب والطعام، ثم إن هذا الدافع الجنسى يخضع للتربية بمعنى اننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسى ويتحكم فيه، وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكناً فحسب بل ضروريا، ويرى الباحثون ان نقطة الضعف الأساسية فى فرويد العالم، انه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة.

وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت انه كان يتخذ من تحليل اخلاقه وهواجسه ومشاكل صباه قاعدة كل تعميماته والفلسفة الفرويدية تتميز بأنها ميكانيكية جبرية، (اى انها تعارض ابرز مفاهيم الإسلام وهى إرادة الفرد التى هى مناط مسئوليته، كذلك فقد كشفت الأبحاث التى اجراها الأطباء النفسيون عن فساد نظرية فرويد بأن إقبال رجال التربية على لوم الآباء هو المسلك المدمر فى تربية الأبناء ويقول العلماء انهم درسوا احوال ١٨٥ طفلا غير منحرفين فيهم الفقراء والأغنياء وقد نشأ الأولاد اصحاء مستقيمين

بالرغم من قيود التربية القاسية ويدلل ذلك على أن هناك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل وليس بالهيئة والوسط والحالة الاجتماعية وحدها ، ودعا الدكتور ناتان كالآبي من كبار الباحثين إلى رفض نظرة فرويد وقال انها ليست سوى معول هادم لعقول الشباب ومخدر جيت لنفوس أبناء الشعب ويقرر بعض الباحثين أن فكرة فرويد فى أن غرائز الإنسان هى التى تحكمه وتسيطر على نشاطاته وان الجانب المسمى بالروح لا وجود له مطلقاً إنما هى مؤامرة ترمى إلى هدم وتحطيم القيم الأساسية التى جاءت بها الأديان .

• • •

وهكذا نرى أن مفاهيم العلوم الإجتماعية والنفس والأخلاق كلها منحطة وليس لها سناد علمى أو واقعى وإنما هى تقوم على أهواء البشرية وترمى إلى تدمير المجتمعات ، أما موقف الإسلام من هذه المفاهيم فهو واضح مضىء كفلق الصبح ، حيث يقف الإسلام موقفاً واضحاً صريحاً من النفس والسلوك الإنسانى فهو يأخذ الكائن البشرى كاملا ولا يفصل بين نفسه وجسده أو بين عواطفه وعقله أو بين ماديته وروحانيته، ويؤمن بأن الإنسان ثابت الجوهر متغير الصورة وأنه سيصل إلى تفريغ كيانه من مضمونه أو النظر اليه على أنه البذل البشرى خالياً من الروح والوجدان

ولذلك كله فالإسلام يعمد إلى إيجاد التوازن فى نفس الوقت بين

قواه المختلفة مما يؤدى إلى (التوازن) فى المجتمع نفسه ، فيحاول أن يحفظه من التمزق دون أن يعتزل الحياة بالرهبانية أو يصرع نفسه فيها بالاباحة ، فالتوازن الدائم هو الذى يحقق للإنسان قدرته على أداء رسالته وممارسته تجربة دون أن يفقد المسئولية باعتزالها ودون أن يعجز عن احتمال الأمانة والانحدار عنها .

والإسلام يعترف بالكائن البشرى كما هو ويحقق له رغبات جسمه وعقله وروحه ، كما يعترف بالنشاط الحيوى للإنسان ويقر حق الفرد فى مزاولة هذا النشاط فى حدوده الطبيعية ـ هـــذا الاعتراف بالطبيعة البشرية وحق ممارستها ، يحول دون كل مايسمى بكبت أو تمزق أو ضياع وإنما يقع التمزق والضياع والكبت نتيجة الفصل بين القيم واعلاء شأن أحداها كإعلاء الروحانيات بالزهادة المطلقة أو اعلاء الماديات بالاباحة المطلقة ، ومن حيث تكون النظرة إلى الحياة متكاملة جامعة فان الانحراف لا يقع ، ذلك أن النظرية المادية الخالصة هى وحدها التى تخلق التشاؤم والتشكيك والقلق الذى يحس معه الإنسان أنه وحيد وغريب وشقى ، هذامنتهى التمزق والضياع فى المفاهيم الاجتماعية والإنسانية الغربية وهو طارىء عليهم ولا يوجد فى مجتمعنا الإسلامى الذى يقوم على تكامل القيم فإن الإيمان بالله وحده يؤدى إلى الثقة والطمأنينة (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ويحل معه التفاؤل والرضا بقضاء الله ، ذلك أن الإيمان بالله قوة دافعة تحول دون اليأس وتزرع الأمل ، وتبعث

الثقة وتدعوا إلى المعاودة فى حالة الاخفاق

ومن هنا فليس فى الإسلام طوابع الانهزام أو اليأس أو التشاؤم الذى يغمر كتابات الغرب كذلك فان مفهوم الإسلام يقوم على الغيرية والتضحية والتقوى بينما يقوم الفكر الغربى على فكرة الرفاهية والترف وهى تتعارض مع مفهوم البذل والعطاء ، كذلك فإن دراسة معطيات الفكر الإسلامى فى عوالم النفس والأخلاق والاجتماع تكشف بوضوح عن سبق العلماء المسلمين فى هذا المجال ويعزو هذا فضل الاشعرى والغزالى والجنيد وابن خلدون وقد كشفوا قبل الباحثين الغربيين حقيقة النفس والجنس وقالوا إن النفس لها جوهر روحانى بما ترى من شرف طباعها ومضادتها لما يعرض البدن من الشهوات والغضب وأشاروا إلى أن الغريزة الجنسية ركبت فى الإنسان لفائدتين : اللذة وبقاء النسل .

وقالوا : ان لهذه الشهوة افراطاً وتفريطاً واعتدالا ، اما الافراط فهو مايقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء ، والجوارى ، فيبعدهم عن سلوك سبل الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش ، وأن التفريط فى هـــذه الشهوة هو الضعف ، وهو مذموم ، وتمتزج مفاهيم النفس الإسلامية بالأخلاق والدين وترمى من وراء ذلك إلى أن يكون سبيلا إلى إصلاحها وإلى تهذيب الأخلاق والوصول بالمسلم إلى شاطىء النجاة فى ارضاء الله

وبمراجعة مفاهيم الأخلاق والنفس والإجتماع فى تراث الاسلاك يتبين أن للمسلمين أولوية شامخة كريمة فيه قد تحولت واختفت ويجب استفادتها وأن كتابات الدكتور محمد عبد الله دراز عن قانون الأخلاق فى أطروحته الكريمة وما كتب فى السنوات الأخيرة عن علم النفس الإسلامى وعلم الاجتماع الإسلامى ليعطى علامة حقيقة على طريق الأصالة والعودة إلى المنابع ، وهذا إجمال له تفصيل .



الاسلام والعلوم الانسانية

(٢)

العلوم الاجتماعية والإنسانية
بين نظرة الغرب ونظرة الإسلام

تختلف نظرة الفكر الغربى عن نظرة الفكر الإسلامى فى مسائل كثيرة وأهمها : الإنسان ومن خلال مفهوم الإنسان يتجدد دور النظريات الأخلاقية والنفسية والاجتماعية فى كل من المنهجين حيث يقوم المنهج الغربى على مصادر ثلاثة هى : الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى ووصايا المسيحية .

ولقد كان لإضطراب مفهوم (الدين) فى الغرب أثره فى قيام نظريته عن الإنسان وهى نظرية تختلف فى مفهوم الفلسفة اليونانية التى تقوم على عبادة الجسد وعن نظرية الرومان التى تقوم على شرعية الرقيق إلى مفهوم المسيحية الغربية التى تقوم على أساس الإنسان الخاطىء نتيجة للخطيئة الأولى .

ومن هنا فقد تكونت مفاهيم الاجتماع والأخلاق والنفس بهذه الآثار ، وكان لسيطرة اليهود التلموديين على مفاهيم الدراسة فى الجامعات أثرها فى فرض مفاهيمهم التى رسموا خطة نشرها فى الجوييم

(وهم من غير اليهود) لإبادة الجنس البشرى وتدميره قبل سيطرتهم على حكم العالم .

وإذا كان أساس الفلسفة المادية هو إنكار الجانب الروحى والمعنوى بما فيه الدين إنكاراً تاما قد فرض طابعه جانبه على هذه النظريات التى ادعى أصحابها أنها علم ، بينما قامت الدولة الأكيدة على أن هناك فوارق عميقة بين الفلسفة والعلم التجريبي من ناحية وبين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية من ناحية أخرى ، فإذا كان هذا الاضطراب قائما فى مجال الفكر الغربى نفسه ، فإن هناك اضطرابا يشد قوة بين هذا الفكر بجملته وبين الفكر الإسلامى وذلك بعدأن طرحت مفاهيم الفلسفة المادية ومفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع فى معاهدنا حيث تتسع شقة الخلاف بين فكر ربانى جامع يقوم على أساس التكامل بين مادية الإنسان وروحيته وبين فكر إنشطارى لا يعترف بعالم الغيب أو الوحى أو الروح أو المعنويات ويفسرها تفسيراً ماديا .

وهناك أيضاً عاملان هامان فى هذا المجال :

أولا : عامل البيئة المختلفة ، البيئة الغربية بكل تحدياتها واختلافها مع الكنيسة ومن ثم مع مقررات المسيحية وبين البيئة الإسلامية التى تصدر عن يقين كامل عن الإسلام الذى لا توجد بينه وبين العلم

عداوة بل إن الإسلام هو الذى أعطى العلم منهجه الذى مكنه من بناء قاعدة التجريب .

ثانياً : عامل العصر : الذى تختلف بين العلوم صدرت عن حضارة متقدمة وعن تطورات واسعة وعن مفاهيم متغايرة خلال خمسة قرون من النهضة الأوروبية وبين عصر اليقظة الذى يجرى بخطوات وثيرة نحو تصحيح مفاهيمه واستعادة ذاتيته الخاصة بعد أن حاصرته رياح السموم والتغريب والغزو الثقافى فكيف يصح فى الأذهان أن يقبل المجتمع الإسلامى هذه النظريات وهو مازال يحتفظ بقيمه ومفاهيمه وأخلاقه وأسلوب عيشه الخاص (مفرقا بين الحضارة والمدنية أو بين القيم الإنسانية والتقدم المادى فى الآلة والصناعة)

خضوع العلم للسياسة :

ومن خلال الاختلاف الواضح العميق بين مفهوم الإسلام للإنسان والنفس والأخلاق والاجتماع وبين مفهوم الغرب أن العلم فى الغرب ليس حايداً ولكنه منحاز فهناك (مفهوم اجتماع) للأيدلوجية الغربية الرأسمالية الليبرالية يختلف عن مفهوم الأيدلوجية الماركسية، وهو بهذا ليس علما بمفهومه الصحيح ولكنه منهج يعمل فى خدمة هذا النظام أو ذاك وما يتصل به من تثبيت سلطاته ونفوذه فى عالم المستعمرات أو البلاد الخاضعة له اقتصاديا ، ومن هنا فقد أشار كثير إلى أن علم

الاجتماع الأمريكى مثلا لم يقف عند حدود مجتمعه ، وإنما تعداه إلى بحوث استهدفت مقاومة التغيير فى العالم الثالث وضرب الحركات التحررية .

وأثبت علماء آخرون إرتباط البحث الاجتماعى فى الغرب بأدوات السياسة والقوة العسكرية ، وأن بحوث علم الاجتماع لتستخدم كوسيلة فى النزاع العالمى وتثبت نتيجة العالم الثالث للنظام الرأسمالى فكراً وتوجيها كذلك ففى الإتحاد السوفيتى نجد أن جانبا كبيراً من الفكر الاجتماعى يوجه نحو كشف مآسى وتناقضات المجتمع الرأسمالى على وجه العموم وأن الباحثين السوفيات يدرسون قضايا المجتمعات النامية بهدف كشف أثر الرأسمالية والاستعمار من أوضاعها وتأثيراتها ومعنى هذا أن علم الاجتماع فى الغرب ليس علما أصيلا وإنما هو علم موجه فهو فى داخل المجتمعات الغربية لخدمة أهداف النفوذ والسيطرة ومن داخل المعسكرات الماركسية لكشف عوامل أو أخطار السيطرة الغربية ، ومعنى هذا أن علم الاجتماع بصورته الحالية هو علم (تبرير الواقع) وأنه ملتزم بتوجيهات الايدلوجية والحزب ويقول الدكتور عبد الباسط عبد المعطى فى كتابه (اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع) أن دوركايم وفيبر ومن قبلهما (أوجست كونت) أرادوا جميعاً التنظير لصمود الرأسمالية الأوروبية والمحافظة على منجزاتها وتبنى توجه ليبرالى فعال فى الفردية التى هى جوهر المشروع الرأسمالى ، وأن الرواد لعلم الاجتماع يكونوا قادرين على وضع نظرية شاملة . وأنهم

خضعوا لمجتمعاتهم ولتحديات عصرهم وبيئتهم فى حدود فرنسا وألمانيا وبذلك جاءت ملاحظاتهم متعايشة مع الواقع متجددة به، كما أن هؤلاء جميعاً كانوا منظرين للطبقات الحاكمة والمسيطرة، فتحول العلم عندهم إلى تحكم ذى بعد واحد قضى على واحدة من خصائص العمومية، أى نسيج البناء الاجتماعى بطبقاته وجماعاته وقطاعاته وأنهم اتخذوا جميعهم موقفاً تبريراً من أوضاعهم الاجتماعية وتلك أقوى مقاتل علم الاجتماع الذى نقله المسلمون فى مدارسهم وجامعاتهم وحاولوا أن يصوغوا مجتمعاتهم على ضوئه الكذيب.

ومن هنا فقد أنكر علماء معاصرون قدرة علم الاجتماع فى الوصول إلى قواعد عامة للتطور الاجتماعى.

وهذا الذى يقال عن خضوع العلوم الإنسانية يقال بالنسبة لما يسمى علم الإنسان (الانتربولوجيا) التى تخدع الكثيرين اليوم ويظنون أنها علماً خالصاً، فقد تكشف من خلال عديد من أبحاث جادة أن هذا العلم ينطوى تطبيقه فى البلاد الإسلامية على مؤامرة خطيرة تمسك الصهيونية التلمودية خيوطها من أجل تحقيق أهداف خطيرة، فقد أخذ عالم النفس الاجتماعى (بيلز) الذى أقر بوجود تعارض بين قضايا البحث الأنتربولوجى والأخلاق فقد حكم على الأنتروبولوجية بالإستقراطية العلمية اللاأخلاقية للأسباب التى أوضحها ومنها أن الطريقة فى البحث الأنتربولوجى القائم على الملاحظة الشخصية يعتمد على

الإنطباعات الذاتية وكل ما هو ذاتى ليس موضوعى ، علماً بأن الأنتربولوجيا كما يقول الدكتور زيدان عبد الباقى - قد نشأت بتشجيع ورعاية الاستعمار لكى يتمكن من قهر الشعوب المختلفة وامتصاص ثرواتها تحت زعم العمل على الرضى بها ، وهذه الأنتروبولوجيا لا يشرها قانون الأخلاق كما يؤكد ذلك علم الاجتماع : إن حركة التحرر والاستقلال جعلت من الاستعمار عملية غير مربحة .

ومن ثم كف الاستعمار عن تمويل البحوث الأنترولوجية وبالتالى فلا يجوز للجامعات أن تحل محل الاستعمار فى تمويل الأنتروبولوجية إلى وظيفة إنتربولوجى لا توجد إلا فى البلاد الاستعمارية .

ومن هذين الوثيقتين يتبين بكل وضوح أن العلوم الإنسانية الوافدة تستخدم فى بلاد المسلمين فى سبيل تحقيق غايات وينسخ النفوذ الأجنبى وتدمير استقلال الإرادة الخاصة ، وهذا جانب خطير يجب أن لا يغفل عنه الباحثون فى هذا المجال .

ومن ناحية أخرى نجد التعارض الواضح بين مفاهيم الإسلام ومفاهيم العلوم الاجتماعية ، وفى مراجعة لفكر الأربعة الكبار فى علم الاجتماع (أوجيست كونت ، دوركايم ، ماكس فيبر ، ليفى برسل) نجد أن القاعدة الأساسية لهذا العلم ولعلم النفس والأخلاق هو نظرية دارون التى يقول أن الإنسان حيوان ناطق وتدرجه فى نظام الحيوان

وتفرض عليه أحكامه متجاهلة جوانبه الروحية والمعنوية وهى أساس النظرية المادية بالإضافة إلى التفسير المادى للتاريخ .

وقد حرص هؤلاء العلماء على أن يكون علـــم الاجتماع أداة للمحافظة على الواقع القائم وتأكيد السلطة القائمة ، أن يكون كالعلوم الطبيعية ويرى هؤلاء أن على الإنسان أن يتلاءم مع ما هو قائم وليس له من الإرادة ولا يجب أن تكون له إرادة .

وهذه كلها مفاهيم لا يقرها المنظور الإسلامى الذى يرى فى علم الاجتماع أداة تقدير وإصلاح، وأنه علم إنسانى له منهجه الخاص المختلف مع العلوم الطبيعية وأن للإنسان إرادة حرة وأنه قادر على التغيير .

وهذا هو العنصر الخطير الذى تختلف فيه مفاهيم الإسلام للعلوم الإنسانية مع مفاهيم الفكر الغربى ، وهو عنصر الجبرية المطلقة للفرد فى إطار المجتمع ومحاولة الإقرار بعجز الإنسان عن تغيير المجتمع وضرورة خضوعه له وقوله أن العامل الفعال الذى يؤثر فى المجتمع هو البيئة الاجتماعية وهو إلغاء كامل لدور الفرد .

ولا ريب أن إنكار مسئولية الفرد ودوره فى سبيل تغيير المجتمع هو أخطر أوجه الخلاف ، دوركايم يرى أن الفرد لا قيمة له ولا معنى للتشبث بالحرية الفردية وإنما القيم كلها للمجتمع ، وأن الدين خرج من الأرض ، كما خرجت الجماعة نفسها فضلا عن فكر التطور المطلق

والإسلام يعارض هذه المقررات كلها ويرفضها تماما فهو يقر المسئولية الفردية ، ودور الفرد وقيمه ، وربانية الدين المنزل ، كما تذهب مقررات الاجتماع والنفس والأخلاق إلى تفسير الإنسان وفق مذهب المادة وعالم الحيوان فى مواجهة مفهوم الإسلام الذى يكرم الإنسان (ولقد كرمنا بنى آدم) فضلا عن تكامل المنهج الربانى بين المادة والروح ومن أكبر أخطاء دور كايم دعواه الباطلة بأن الجريمة هى الفطرة وأن الدين والأسرة ليسا من الفطرة .

وهكذا نصل إلى نفس الغاية التى كشفت عنها فى المرحلة السابقة من البحث وهى أن هذه العلوم - لا تملك مقررات العلم الصحيح ، وإنما هى أيدلوجيات ذات هدف أساسى هو تبرير النظام الغربى وإحكام سيطرته على العالم الإسلامى وهى مفاهيم تسوق الإنسان لا محالة إلى دماره المادى والمعنوى .

وإذا رجعنا إلى أحدث الأبحاث فى مجال العلوم والعلوم الإنسانية وهو كتاب (حدود العلم) للعلامة الكبير سوليفان نجده يصور مفاهيم النفس الغربية على أنها مجموعة من الأكاذيب : يقول :

إن علم النفس لا يمكن اعتباره علماً حتى الآن والمعارف الأخرى مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك بعض النواحى التى لا تعتبر مرضية من وجهة النظر العلمى والعلم أقوى ما يكون عليه عندما

يتناول العالم المادى ، أما مقولاته فى الموضوعات تعتبر نسبياً ضعيفة ومتجلجلة .

وقد وجه سوليفان نقوداً عديدة إلى النظرية تبين أنها لا يمكن أن تعد مجال مسلمة نهائية تحل اللغز المتعلق بعمل العقل ، لقد ركز فرويد على الرغبات الجنسية المكبوتة ، بينما ركز علماء آخرون على دوافع ورغبات أخرى ، ومن هنا فإن معطيات التحليل النفسى لم تكن إقراراً عاما من قبل علماء النفس ، إن النظرية فى حقيقة الأمر تركيب شديد التعقيد وقد قللت وفرة الفرضيات التى انطوت عليها هذه النظرية للكثير من قيمتها بدرجة الثقة بها فى أعين الكثيرين وينتهى سوليفان (أى ليس فى نظريات علم النفس كافة شىء من شأنه أن يغير جديا من قناعتنا بأن هذا العلم لا يمكن اعتباره علما حتى الآن).

والعلم هو أقوى ما يكون عندما يتناول العـالم المادى . أما مقولاته فى المواضيع الأخرى فتغير نسبياً ضعيفة ومتجلجلة ، وهى نفس النتيجة التى انتهى إليها أليكس كاريل فى كتابه (الإنسان ذلك المجهول) أن السيطرة على عينة من العالم المادى لغرض فهمها ممكنة إلى حد ما ، أما السيطرة على عينة فيها الإنسان والعقل والحياة طرفا فتكاد تكون مستحيلة :

وصدق الله العظيم حيث يقول (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

نتخلص من هذا كله إلى أمرين :

الأول : إن هذه المقررات المسماة علما وما هى إلا أدوات ثقافية لتثبيت التبعية والسيطرة للفكر الغربى على قيمنا ومجتمعنا .

والثانى : إن أى علم لا يمكن أن تقوم له قائمة إلا إذا كان له أساس من الدين الحق والإيمان بالله سواء كان من العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية وأن الزعم الخاطىء بفصل هذه العلوم عن الدين هى محاولة لتدمير مقومات الأمة الإسلامية وقد كشفت الأبحاث الأخيرة عن عجز المجتمعات الغربية عن العطاء لأمرين لتجاهلها البعد الإلهى فى الحضارة والبعد الأخلاقى فى الاجتماع .

هـــذا وبالله التوفيق

رقم الإيداع ١٩٨٩/٣١٨٩

مطبعة دار البيان بمصر
٩٣١٦١٩